المحاضرة (11)

النقد الموضوعاتي:

يعدّ النقد الموضوعاتي أو الموضوعاتية من المفاهيم الإجرائية التي حاولت معالجة "وحدات ذات درجة تكون تركيبية واحدة، دون اشتمالها على عدد العناصر نفسها، شريطة تداخل الأشكال المترابطة، لا الأشكال الحرة"[1] في النص، ظهوره كان كرد فعل على التأثيرات الوجدانية، والتأملات الميتافيزيقية في القرن 19م وبداية القرن 20م؛ لأنها تعني وصف عناصر الأثر بشكل يتفق مع وجوده في العالم الواقعي والخيال، انطلاقا من قنوات تعمل على انسجام الأثر الأدبي عبر أربعة تفرعات هي: 1-خطاطة تنظيمية محسوسة 2-مركز حيوي لعالم تخييلي 3-محور ترابط العمل في كتلة دالة 4-خلاصة لمنظُوراتية التعديلات[2].

إنّ لفظتي Objet / Théme في المعنى الاصطلاحي الفرنسي يشيران إلى المعنى نفسه، رغم اختلاف مصدر كل مصطلح، فالأول ذو أصل يوناني والثاني ذو أصل لاتيني، غير أنّ كلّ ما هو "Théme" بوصفه موضوع تفكير أو تأمّل أو نظر هوObje، وكل ما هو Objet هو Théme ؛ لأنه قابل لأن يكون موضوع تفكير أو تأمّل أو نظر، ولكن Objet تتقابل مع Sujet ولا تستطيع كلمة Théme أن تحقّق هذا التقابل[3]، من هنا يبدأ الاختلاف في طبيعة الكلمة العربية المترجمة "موضوعية" التي تتضمن المعنيين، ولكن السياق في أغلب الأحيان كفيل بتمييز المراد من هذه الكلمة، فإذا ما عجز السياقُ عن توفير هذه الضمانة وضعنا المقابل الفرنسي Objectivité إلى جانب الكلمة العربية "موضوعية" في كل مرّة تعبر فيها عنها، وتركنا الكلمة العربية منفردة من دون مُقابِلتِها في الفرنسية حين تُعبّر عن Thématique، ويبقى استخدام أية كلمة من الكلمتين العربيتين "موضوعية / موضوعاتية" مشروعاً ومعبّراً عن موقفنا من اللغة، فإذا طلبنا التكثيف والاقتصاد في اللغة اتجهنا إلى استخدام كلمة "موضوعية"، وإذا أردنا الإشارة إلى الآلية الإجرائية استعملنا "موضوعاتية"، دون أن نرى فيها ما يثيرُ من لبسٍ أو عقبة، كونها تشير مباشرة إلى تلازم الأنواع الأدبية والأشكال النقدية، مُشدّدة كآلية نقدية على الرسالة أو الفكرة المهيمنة على العمل الأدبي شعرا أو نثرا، لتلعب فيه دور القانون الأساسي المنظم لعضويته، كموضوع الحرب مثلا في المعلقات وشعر الملاحم، وموضوع الحب في الشعر العذري.

ليكون البحث في الموضوعاتي "بحثٌ عن النقاط الأساسية التي يتكون منها معنى العمل الأدبي، ومقاربة الكشف عن هذه النقاط الحساسة التي تجعلنا نلمس تحولاتها وندركُ روابطها، في انتقالها من مستوى تجربة معينة إلى أخرى شاسعة"[4]، وهذا المسعى هو الذي يحاول انطلاقا من ثيمة العمل الأدبي قراءةَ الموضوعاتية أن تؤسِّس لهُ، بالكشف عن بنيته التي تعبر عنها بعض الثوابت الشكلية والأنماط البلاغية المُشكّلة لمظاهرٍ أسلوبية بارزة، مُرتكزها الفلسفي والمعرفي فينومينولوجيا هوسرل (1938) وهيدجر، ووجودية جون بول سارتر وغاستون باشلار، ومن وراء هذه الأشكال تهدف هذه القراءة النقدية على اختلاف مرجعياتها إلى تبيُّنِ المعمار الظاهر أو الخفي، وإدراك مفاتيح مكوناته كعلامة قابلة للفهم والتأويل، لاكتشاف البنية العميقة للخيال المبدع؛ الخيال المادي الذي لا يعني به المادة بقدر ما هو تصوير للمادة في الفكر، المختزن في الوعي الذي يتقابل مع علاقته الأنا المبدع بالعالم، "فالوعي موجود لأنه يتجلى لذاته، لكن ذلك لا يتم بإظهار عالم يهتم به هذا الوعي اهتماما كليا"[5]، وهذا ما يستدعي التأكيد على أهميةِ عمل الوعي، الذي يفرضُ وجود فكرٍ حول العلاقة مع العالم كرؤيةٍ، فالأنا تؤسّسُ لذاتها من خلال علاقتها معها، وذاته تتحدّدُ من خلال علاقتها مع ما يحيط بها.

كما ترتبطُ القراءة النقدية الموضوعاتية للأعمال الأدبية بأصناف المُدركات الحسية في علاقاتها بالزمان والمكان والمشاعر والأحاسيس، في دلالة واضحة على العلاقة الوطيدة بينها وبين التحليل النفسي، لنجد الناقد ستاروبنسكي يعلّق على أحلام اليقظة لجون جاك روسو، ومتحدثا عن أصناف الإدراك فيما يتعلق بالحيز المكاني قائلا: "منذ تلك اللحظة ينبسط فضاء جديد، فضاءٌ مُزمّنٌ Temporalisé يتركز على الأنا، يُحييهِ ويُسكِنهُ فيض الشعور، ذلك هو فضاء النزهة"[6]، واضعا تحاليله داخل أعماقٍ تفترضُ معرفةً جيّدة بالنظريات الفرويدية، التي يصبحُ مُضمرُ النص فيها هو الوجه الآخر للظهور، وتصبحُ سلطةُ الغيابِ هي سلطة الأشياء الواقعية، واعتماد ستاروبنسكي على مفهوم "النظرة" ضمن أعمال روسو وآخرين هو في حقيقة الأمر محاولة لاستيعاب مجمل التحاليل النفسية ونتائجها، خاصة تلك التي طبّقها سيغموند فرويد على الفن والأدب، على اعتبار أنها دليلٌ على "النظرة" المعبرة عن كثافةِ الرّغبةِ.

يتغذى النقد الموضوعاتي كذلك على المقاربات النقدية التي قام بها غاستون باشلار، كدراسته الموسومة بـ"شاعرية الحُلم"، التي أكّد فيها على "تلازم واستقلالية الأدب المتحرّر من العلاقة المباشرة بالافتراضات السوسيو –تاريخية، إنه يعالج تحت غلاف البنية قضية الوعي الاختزالي، ونكاد نقول إنه

لأول مرة يطرح كتأمل حول أهداف النقد، من ثم نجد أنفسنا أمام قواعد لشكلٍ آخر من التحليل النصي، المؤسس في هذه المرة على العمل ذاته، مُكونا بذلك شبكة دالة من العلامات الخاصة"[7]، التي فيها تقصٍ علمي رصين لمعرفة المعرفة، مختارا في تحليله ظاهرية* الأشياء والكلمات لمعالجة الصورة المحببة إلينا، لكن برؤية جديدة، يطلق عليها باشلار بـ"المقصدية.الشاعرية"؛ أي أنّ النقد الموضوعي يؤمنُ بوجود علاقة مزدوجة تبادلية بين الذات والموضوع، بين العالم والوعي، بين المبدع وعمله.

إضافة لجهود الناقد جورج بوليه George Poulet بوصفه أقرب النقاد إلى باشلار، الذي ركّز على وعي المبدع من خلال أشكال الوجود في العالم، في الإبداع، لأنه "يعرضها بصورة شبكات تخيلية، كما أنه يعتبر امتدادا لوجهة النظر الروحانية لمُؤسسي مدرسة جنيف، بتعريفه الحسي والعقلي معا لمبدأ الأنا المفكر الذي يريد دراسته: تعني استعادة كوجيتو كاتب أو فيلسوف في أعماقنا للعثور على طريقته في الإحساس والتفكير، ومعرفة ولادة هذه الطريقة وتشكلها، وما هي العقبات التي تصادفها، إنها إعادة اكتشاف معنى حياة انتظمت انطلاقا من وعيها بذاتها (الوعي النقدي)"[8]، الذي هو كفعالية نقدية يستلهم من الاستحواذ الذاتي للعالم الخاص بالمبدع، ومن خلاله يتفتح كل عالم تخييلي، فتأمل خصوصية الزمان والمكان يُعرّضان العمل الأدبي للذوبان، حيث تجمع صورة التفتت الزمان والمكان في ذات التصور الدينامي الذي يلغيهما، وتشبه أعمال بودلير ورامبو في نظر بوليه لانفجارات التي تحطمها استمرارية التاريخ الأدبي المزيفة، وتحذف نقاط الاستدلال الخادعة، ببداهة إبداع جديد[9].

وسعي الناقد هنا هو محاولة كشف خصوصية هذه الأعمال الشعرية للشاعرين بودلير ورامبو، بالتركيز في التحليل على الأنا المفكر المرتبط بالوجود في عالم خاص به، وهذا نفس ما ذهب إليه جان بيير ريشار الذي حاول هو الآخر تحديد نوع من الوجود في العالم مؤسس على التجارب التي تتجلى بصورة أشكال في الأعمال الأدبية.

ليتأسّس بذلك النقد الموضوعاتي في صلته الوثيقة بالنقد النفساني والظاهراتي، انطلاقاً من الجهود والبحوث النقدية سالفة الذكر، رغم أنه ما يزال كنقد إجرائي يبحث عن ذاته وعن أسس قارة يقوم عليها كمنهج.

هوامش المحاضرة:

1. **ينظر سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، منشورات شركة بابل للنشر والطباعة، الرباط، المغرب، ط1، 1989، ص06.**
2. **المرجع نفسه، ص06.**
3. **محمد بلوحي: النقد الموضوعاتي: الأسسُ والمفاهيم، http://dorarr.ws/forum، 2017/02/21، الساعة 11:30 صباحا. بتصرف**
4. **سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص07.**
5. **مجموعة باحثين: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ماي 1997، ص101.**
6. **المرجع نفسه، ص103.**
7. **سعيد علوش: النقد الموضوعاتي، ص14.**

*** الظاهراتية علم يهتم بالظواهر التي يتجلى فيها الواقع من أجل الوصول إلى الجوهركاللون الأبيض ليس وقفاً على الثلج، ولكننا نلمحه في القطن وأوراق الكتاب، لتأتي اللغة لتعبّر عن هذا اللون بالمفردات الخاصة بها، فتلك المفردات هي مظاهر تتجلى في جوهر واحد هو الأبيض**

8. **مجموعة باحثين: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص120.**
9. **المرجع نفسه، ص124.**